

فصول
في عربية المغرب

سلسلة "دراسات معجمية ولسانية"

تدرج هذه السلسلة في إطار رؤية المركز لاستئناف أسئلة النهضة العربية الحديثة، والتي مثل الاهتمام باللغة العربية والنهوض الإنتاج البحثي فيها. وانطلقت رؤية المركز منذ بداية مشروعه النهضوي من أن الأمم تحقق نهضتها بلغتها، ومن دون انعزال عن معرفة اللغات الأجنبية والتمكن منها، الأمر الذي يعمل معهد الدوحة للدراسات العليا الذي أسسه المركز على تحقيقه حيث يجري الاعتناء الخاص باللغة الإنكليزية والتمكن منها، إلى جانب التدريس باللغة العربية.

ولهذا سار مشروع إحدات المركز لسلسلة "ترجمان" بشكل متزامن مع تأسيسه في 25 أيار/ مايو 2013 لـ "معجم الدوحة التاريخي للغة العربية" لسد الثغرة في هذا المجال، ولإدراجه في منظومة المعاجم التاريخية للغات العديد من الأمم التي سبقت العرب في إنجازاتها لمعاجمها التاريخية واستغرق عمل علمائها عشرات السنوات في إنجازه. ولقد أنجز المعجم مرحلته الأولى بإطلاق بوابته الإلكترونية في 10 كانون الأول/ ديسمبر 2018، ومشروعه مستمر لإنجاز المعجم التاريخي منذ أول نص عربي وصل إلينا وحتى زمننا الراهن.

وتصدر "سلسلة دراسات لسانية ومعجمية" لتختصّ بنشر كتب عربية متميزة بقيمتها العلمية المضافة في مجال الدراسات اللسانيات والمعجمية، تنظيرًا وتطبيقًا وتحققًا، وبشر معاجم لغوية عربية مختصة تشكّل إضافة جديدة إلى ما هو قائم من رصيدنا المعجمي الغني. وتطمح إلى تعزيز التفكير والتأليف باللغة العربية في مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية بما يرسخ النهضة العربية الحديثة، وحضورها في العالم.

فصول في عربية المغرب

عبد العلي الودغيري

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
الودغيري، عبد العلي

فصول في عربية المغرب/ عبد العلي الودغيري.
232 صفحة؛ 21 سم. - (سلسلة دراسات معجمية ولسانية)
يشتمل على بليوغرافية (صفحات 211-226) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-735-1

1. اللغة العربية - تاريخ - المغرب. 2. اللغة العربية - اللهجات - المغرب. 3. اللهجة
المغربية. 4. اللغة العربية - ألفاظ. أ. العنوان. ب. السلسلة.
492.70964

العنوان بالإنكليزية

Chapters on Moroccan Arabic

by *Abdelali El Oudghiri*

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



شارع الطرفة - منطقة 70

وادي البنات - ص. ب: 10277 - الطعائن، قطر

هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 11 4965 رياض الصلح بيروت 1107 2180 لبنان

هاتف: 00961 1 991837 8 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، نيسان/ أبريل 2026

المحتويات

7	مقدمة
13	الفصل الأول: اللغة العربية في المغرب: دخولها وانتشارها
39	الفصل الثاني: ألفاظ مغربية ذات أصول يمنية
		الفصل الثالث: بواكير الدراسات المعجمية
75	حول العربية المغربية
		الفصل الرابع: الدراسات المعجمية حول عربية المغرب
115	في القرن التاسع عشر
201	خلاصات
211	المراجع
227	فهرس عام

مقدمة

يشتمل هذا الكتاب على أربعة فصول حول العربية المستعملة بالمغرب أو العربية المغربية، جعلت أولها بمثابة مدخل وتوطئة لبقية الفصول، وفيه تطرقت باختصار وتركيز لكيفية دخول اللغة العربية البلاد وتوطينها وتوسّع استعمالها وانتشارها. ومن المعلوم أن وجود العربية في هذه المنطقة طوال أربعة عشر قرناً قد أكسبها جملة من الخصائص الاستعمالية المحليّة، كما هو شأن سائر اللهجات في العالم العربي، بعد احتكاكها بلغات وعادات استعمالية محليّة وتداولها بين فئات واسعة من غير العرب، وبعدها وقع فيها من التوليد والاشتقاق اللفظي والدلالي ما يقع عادةً في كل اللغات واللهجات نتيجة طول الاستعمال. ومسألة التوليد والاشتقاق ليست خاصة بالمستوى المعياري وحده، وإنما هي ظاهرة عامة وشاملة لكل مستويات الاستعمال. بل إن التداول الشفوي للغة يجعلها أكثر عرضة للتفريع والتشعب، وقابلية للتغيّر والتحوّل، وانفلاتاً من صرامة القواعد وتمرداً عليها.

ثم إن انتشار العربية في مناطق شاسعة من العالم شرقاً وغرباً، لم يكن نتيجةً لعامل واحد فحسب وهو انتشار تعليمها في المدارس والمساجد والكتاتيب على أيدي المعلمين أو عن طريق الكتب، وإنما كان بجانبه عامل أقوى وهو القبائل العربية أو فروع منها التي استوطنت الأقاليم العربية في مرحلة الفتح وما بعده من مراحل تاريخية لاحقة، مع اختلاف

بسيط وخصوصيات قليلة. واكتسابُ اللغة، أية لغة، إنما يُعوَّل فيه بالدرجة الأولى، كما هو معلوم، على السماع والمحاكاة أكثر من اعتماده على القراءة في الصحف والنظر في الأوراق وحفظ القواعد المعمول بها في التعلُّم المدرسي التقليدي. والذين جاؤوا لفتح المغرب ثم استوطنوه على مراحل لم يكونوا من قبيلة واحدة، بل من قبائل شتى، فكان منهم اليمينيون القحطانيون وهم فروع وبطون، وكان منهم المُصْرِيون العدنانيون، وهم فروع وبطون أيضًا. وهؤلاء وأولئك كانوا يستعملون في حديثهم اليومي لهجاتهم المحليَّة التي نشأوا ودرجوا عليها، وليست كلها مطابقة في كل شيء للمستوى المعياري الذي أصبح يُكتسب بالتعلُّم والتلقين عند توسُّع خريطة الدولة الإسلاميَّة. لذلك صرنا نجد في لهجتنا المغربيَّة رواسب من كل لهجة عربيَّة كبرى من اليمينية والمضريَّة على السواء، علمًا بأن المعياريَّة نفسها تتألف من خليط منتخَب من كثير من اللهجات التي كانت في وسط الجزيرة العربيَّة، ولكن هناك لهجات أخرى ظلت خارج العربيَّة المفصَّحة المنتخَبة لأسباب لا حاجة لذكرها في سياق حديثنا هذا. وقد قدمنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب نماذج كثيرة من الألفاظ والاستعمالات التي تأكدنا من انتمائها إلى اللهجة اليمينية القحطانية وبعضها لم نجد له ذكرًا في قواميسنا القديمة، فيكون للهجتنا المحليَّة الفضل في الاحتفاظ به إلى اليوم. ولو أتيح للباحثين مواصلة استقراء ما بعربيتنا المغربيَّة من رواسب اللهجات العربيَّة القديمة الأخرى مع المقارنة ببقية اللهجات العربيَّة الحديثة، لحصلنا على نتائج مُبهره.

هذا عن الفصلين الأولين، أما الفصلان الأخيران الثالث والرابع، فقد تم فيهما تناول العربيَّة المستعملة بالمغرب من زاوية أخرى؛ فخلال اشتغالي بجمع المادة المعجمية للقاموس التأثيلي والتأصيلي للعربيَّة المغربيَّة الذي يصدر قريبًا بحول الله، كان من بين الأسئلة المركزيَّة التي تلح عليّ، السؤال عن متى بدأ استخدام هذا اللفظ أو ذاك من الألفاظ

والتعابير المغربية بالمعنى والصيغة الخاصين به، إن كان عربياً أصيلاً؟ وكيف تطور صيغةً ودلالة؟ ومتى دخل إلى العربية المغربية إن كان من لغة أعجمية؟ فكنت مضطراً في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة إلى تتبع الألفاظ المستعملة في لهجتنا عبر تاريخها الطويل، من خلال القواميس المعيارية القديمة وكتب اللحن والتصويب والأمثال والأزجال (الشعر الشعبي)، وعشرات المصادر والمظان الأخرى الموزعة على مختلف الحقول المعرفية، من اللغة إلى الأدب والتاريخ والجغرافيا والسير والتراجم والرسائل والرحلات والكتب الدينية، خصوصاً منها كتب النوازل والأحكام والفتاوى والحسبة والمجاميع المتنوعة. وقد تأكد لي خلال هذا العمل أن جزءاً مهماً من ألفاظنا المغربية وتعابيرها وصل إلينا عن طريق الأندلس، فالمغاربة في جل ما يستعملونه من ألفاظ وصيغ وتراكيب يتكلمون لغة أندلسية. ومن المعلوم أن كثيراً من الاستعمالات الأندلسية التي مازلنا نتداولها، كان هناك من تتبّعها ورصدها ونبّه عليها في مؤلفات خاصة منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وصل منها ما وصل وضاع ما ضاع. ومما سلم من الضياع كتب أبي بكر الزبيدي وابن شهيد وابن هشام والصقلي وابن خاتمة وابن هانئ السبتي، وهي معروفة ومطروقة منذ زمن بعيد. ومما سلم أيضاً قاموس عربي-لاتيني ألفه شخص إسباني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) يعتقد أنه ريموندو مارتين أو أحد غيره عاش في زمانه. ثم جاء بعده كتاب الراهب الغرناطي المشهور بالقلعي أو الكالا (Pedro de Alcalá) الذي ظهر في بداية القرن السادس عشر (1505) مشتملاً على لهجة غرناطة آخر القلاع الإسلامية بالجزيرة الإيبيرية. ومن الطريف أن يكون الباحثون الإسبان الذين سهروا على إعادة نشر هذا الكتاب نشرة علمية محققة ومتقنة، اضطروا إلى الإقامة في شمال المغرب فترة من الزمن تعلموا فيها عربية المنطقة، وجمعوا مفرداتها وأمثالها وتعابيرها، ليستعينوا بكل ذلك على

تدقيق عبارات المؤلف وكلماته نُطقًا ومعنىً، لاعتقادهم الراسخ أن عربية شمال المغرب ظلّت حية ومحتفظة بطابعها الأندلسي على ألسنة المغاربة الذين تعود أصولهم إلى الأندلس، وهم الذين استوطنوا تلك المناطق منذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين.

ثم مضيت في البحث فانكشفت لي أولى الحلقات في سلسلة طويلة امتدت قرونًا عدة من عناية الاستشراق الأوروبي والغربي عمومًا بمعجم العربية المغربية. والحلقة الأولى جاءت مصادفةً على يد أسير فرنسي يسمى جرمان موييت (Germain Mouïette) وقع في المعتقلات المغربية، وبعد تحريره وعودته إلى بلاده دوّن مشاهداته عن المغرب ونشرها أواخر القرن السابع عشر الميلادي. وكان مما سجله ملاحظاته على العربية المغربية مع قائمة صغيرة من ألفاظها وتعاييرها. وانطلاقًا من ذلك التاريخ سيتوسّع الاهتمام الأوروبي قليلًا بالعربية المغربية خلال القرن الثامن عشر، ولكنه في القرن الموالي (القرن التاسع عشر الميلادي) سيبلغ أوجه ويتنوع المتدخلون فيه من بلاد غربية متعددة ومن مشارب مختلفة، لا سيما أن هذا القرن كان يمثل فترة التربّص باحتلال المغرب، وفترة احتلال فعلي لجارتيه وشقيقتيه الجزائر وتونس. وهذا الاحتلال كان له أثر كبير على وضع العربية المستعملة في المغرب الكبير، فقد اتجه الفرنسيون المسيطرون على المنطقة، إلى اعتماد العربية الدارجة في ربوعها لضرورة التواصل والتفاهم مع السكان في انتظار نشر التعليم بلغتهم وتعميمها والاستغناء عن العربية، لا سيما الفصحى، وهذا ما أدى إلى انتعاش هذا المستوى الاستعمالي من العربية وتحويلها من لهجة شفوية إلى مادة تعليمية لها أساتذتها ومناهجها وكتبها المدرسية وقواميسها الخاصة. فلم تمض إلا فترة وجيزة حتى أصبحنا أمام سيل من المؤلفات التي اهتمت بجمع ألفاظها وتراكيبها وشرحها وترجمتها. ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، وإنما تحوّل الاهتمام بالدارجة فيما بعد، لا سيما بعد احتلال

المغرب، إلى الاهتمام بكيفية استثمارها في مشروع سياسي يخدم مصلحة الاحتلال في الأمد البعيد، وانتقلت الفكرة من استخدامها أداة يتواصل بها المستوطنون الأوروبيون مع الأهالي أصحاب البلاد، إلى أداة لمحاربة العربية المعيارية المشتركة، وإقناع الجمهور البسيط من الشعوب العربية بأن الدارجة أصبحت لغة مكتوبة لها أجديتها وهجاؤها وقواعدها الصوتية والتركيبة والصرفية، ولها قواميسها وكتبها التعليمية ومناهج تدريسها، كما لها تراثها الأدبي الذي عملوا على جمعه وتدوينه في شكل نصوص من الحكايات والخرافات التي سجلوها من أفواه العجائز والشيوخ والفلاحين والحرفيين وما تحتفظ به ذاكرتهم، إضافة إلى كونها في نظرهم اللغة الحية والحديثة والناضجة بأحاسيس الشعب والناطق بلسان الجماهير على اختلاف فئاتها، مقارنة بالفصحى التي لم يكن يستعملها إلا قلة من المتعلمين فيما بينهم عن طريق الكتابة والقراءة دون سواهما، لذلك أصبحوا يعتنونها باللغة الميته.

لقد تتبع هذه المسارات كلها، فكان الفصلان الثالث والرابع من الكتاب، من نتائج ذلك. ففيهما درستُ بشيء من التركيز والتوصيف، الحركة المعجمية الخاصة بعربية المغرب فيما أنتجه الاستشراق الغربي المتعدد الجنسية خلال ثلاثة قرون (من القرن السابع عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي). وقد كان بودي أن أضيف إليهما حلقة خاصة بنشاط الحركة خلال القرن العشرين، ولكنني وجدت أن ذلك سوف يؤثر كثيرًا في حجم الكتاب، فأجلت الموضوع لمناسبة أخرى إن سمحت الظروف بذلك.

والحمد لله وما توفيقى إلا بالله

الرباط في 26 ربيع الثاني 1447هـ

الموافق 19 [تشرين الأول]/أكتوبر 2025

الفصل الأول

اللغة العربية في المغرب دخولها وانتشارها

من المعروف تاريخياً أن انتشار اللغة العربية كان دائماً يسير في ركاب الإسلام. فحيثما حلَّ هذا الدينُ وارتحلَ، حلَّت معه العربية بالضرورة والتلازم. فالقرآن الذي هو عمادُ الدين نزلَ بلسان عربيٍّ مُبين، والتعمُّقُ في فهمه والعملُ به يلزمُ منهما تعلُّمُ العربية والتعمُّقُ فيها قدرَ المستطاع.

يُفهم من هذا أن الدخول الرسمي المعروف للعربية إلى المنطقة المغربية (الشمال الإفريقي) كلها، تمَّ مع الخُطوات الأولى التي خطاها الدينُ الجديد نحو هذه الديار، فالذين جاؤوا بالإسلام هم الذين جاؤوا بالعربية في وقت واحد. لكن من الثابت أيضاً أن هذا الاتصال بين سكان الشمال الإفريقي والعرب لم يكن الأول من نوعه في التاريخ، إذ سبقته موجاتٌ من الهجرات من المشرق العربي نحو المغرب، في أوقات متفرقة من عصور ما قبل الإسلام⁽¹⁾، كان من أشهرها في التاريخ موجة العرب الكنعانيين الذي هاجروا من فلسطين وبلاد الشام إلى الشمال الإفريقي،

(1) يُنظر الباب الثالث من: عبد العلي الودغيري، من التفكك المجتمعي إلى التفكك اللغوي (عمان: دار كنوز المعرفة، 2024)، ص 247 وما بعدها.

واستقروا فيه بعد الأحداث التي عرفتها تلك البلاد عند استيلاء العبرانيين عليها. وكان من أشهرها أيضًا موجة العرب الفينيقيين الذين سيطروا على البحر الأبيض المتوسط شماله وجنوبه وجُزُرُه وأطرافه، وأسسوا الدولة القرطاجنية في تونس، وأقاموا موانئ ومحطات تجارية على المحيط الأطلسي. وحين تغلب الرومان عليهم، استمرت لغتهم المتأخرة (البونيقية) متداولة إلى حين دخول الإسلام. وفي هذا الصدد، يقول المؤرخ الفرنسي اَگْصِيل⁽²⁾: "إن القديس أوغسطين⁽³⁾ يخبرنا أن البونيقية كانت في عهده منتشرة جدًا في الأرياف. وبُروكوب يذكر أن الناس كانوا ما يزالون يتكلمون هذه اللغة في القرن السادس، ومن هذا التاريخ إلى الفتح الإسلامي فالفارق قصير. ذلك أن اللغة العربية التي لها نسب مع البونيقية، كان يسهل أن تحل محلها، مثلها في ذلك مثل الآرامية التي هي لهجة سامية أخرى، وحلت قبل ذلك بقرون عديدة محلّ الفينيقية في أرض فينيقيا. فیسوغ إذن الافتراض بأن العديد من البربر قد اتخذوا لغة الإسلام لأنهم تعلموها من غير تعب لمعرفةهم بالبونيقية. فمنذ زمن طويل كانت قرطاجنة قد هيأتهم لتقبّل القرآن كتابًا مقدسًا ودستورًا".

ويقول جان مازيل⁽⁴⁾: "لقد دمر الرومان قرطاجنة تمامًا، ولكنهم لم يفلحوا في تحطيم وإزالة الروح البونية (البونيقية) التي عاشت في شمال إفريقيا وبقيت آثارها حتى يومنا هذا متمثلة في أمور عديدة، منها اللباس والحلي والخزف والتقنيات الزراعية وبعض أشكال السلوك أو

(2) اصطفان اَگْصِيل، تاريخ شمال إفريقيا، ترجمة محمد النازي سعود (الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية)، ج 4، ص 372.

(3) القديس أوغسطين أو أوغسطينوس من آباء الكنيسة المسيحية وفلاسفة اللاهوت، من أصول أمازيغية، ولد في تاغست الجزائرية التي كانت ولاية رومانية، وتوفي سنة 430م. وكان يتقن اللاتينية التي بها تعلم وألّف وحاوّر وتفلسف.

(4) جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية)، ترجمة ربا الخش (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1998)، ص 193.

بعض المعتقدات أيضًا (...). وحتى القرن الثالث الميلادي كان الحكام الرومان لشمال إفريقيا (قرطاجة سابقًا) يحملون اللقب الفينيقي شُوفط بلفظته اللاتينية suffet أو sufes أي قاضي قرطاجة. كما كان على القديس أوغسطين بعد ستة قرون من خراب قرطاجة أن يلقي مواعظه أو خطبه باللغة البونية ليوضح للناس ما يريد أن يقوله عندما كان يمارس تعليم الدين في منطقة هيبون (Hippon) التي تسمى اليوم بون⁽⁵⁾، وهناك أمور كثيرة أخرى يصعب عدّها لم تستطع إطلاقًا أن تمحو عند سكان الشمال الإفريقي ذكرى قرطاجة والأفكار التي جاءتهم بها من الشرق (...). هذا وإن نزعة الحنين إلى الوطن بالنسبة للمجتمعات الشرقية تجعلنا ندرك بشكل أفضل مدى السرعة النسبية التي تقبل فيها المغاربة، والتونسيون على الخصوص، الإسلام واستيطان العرب، وفيما بعد استيطان الترك".

وورد في كتب التاريخ أيضًا نصٌّ معروف ذكره البكري في المسالك، والحميري في الروض المعطار وصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، جاء فيه بلفظ واحد تقريبًا: "وروى الثقات عن عبد الرحمان ابن زياد بن أنعم، قال: كنتُ وأنا غلامٌ مع عمي بقرطاجنة نمشي في آثارها ونعتبر بعجائبها، فإذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية: أنا عبد الله [بن الأواس]⁽⁶⁾ رسولُ رسولِ الله صالح. وفي رواية أخرى: أنا معتب، بُعثت إلى أهل هذه القرية أدعوهم إلى الله. أتيتهم ضحى فقتلوني ظلمًا، فحسبيهم الله"⁽⁷⁾. فوجود كتابات حميرية باقية في آثار قرطاجنة إلى ما بعد

(5) عنايةً حاليًا.

(6) ما بين المرتين زيادة في كتاب البكري، وساقطة من كتاب: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2 (بيروت: مكتبة لبنان، 1984)، ص 463.

(7) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدریان فان ليوفن وأندري فيري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ج 2، ص 703.

الفتح الإسلامي، دليل على الوجود العربي القديم هناك. وقد تكون تلك الكتابات نقوشًا فينيقية ظنّها من رآها أنها حميرية.

وذكر البكري أيضًا خلال حديثه عن مدينة سُرت الليبية: "ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبطي، لا يعرفه غيرهم"⁽⁸⁾. وقد يكون المقصود بذلك اللسان هو البونيقية التي لا يعرفها المشاركة ولا أهل الأندلس، وأما قوله (ليس بعربي)، فمفهوم، لأن الفينيقية ولهجاتها المتأخرة ابتعدت من عربية المشرق التي انتهت حالتها إلى الفصحى التي نزل بها القرآن، ولم يكن لعرب المشرق الفاتحين علم بها. وهذا لا يعني أن لا صلة لها بالعربية الأم.

وهناك شواهد وأدلة أخرى على قدم الصلات بين سكان المغرب وعرب المشرق يمكن الرجوع في شأنها إلى كتابنا المشار إليه بهامش سابق.

وقد تطرّق الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، لموضوع اللغة المكتوبة في شمال إفريقيا قبل الإسلام فقال⁽⁹⁾: "يعتقد المؤرخون العرب اعتقادًا جازمًا أنه لم تكن للأفارقة (يقصد البربر) لغة أخرى غير المرسومة بالحروف اللاتينية، ويقولون إن العرب عندما فتحوا إفريقيا لم يجدوا غير الكتابة اللاتينية (...). ويذهب فريق آخر من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة (البربر) لغة مكتوبة خاصة بهم إلا أنهم افتقدوا هذه الكتابة من أجل احتلال الرومان لبلاد البربر وطول مدة حكم المسيحيين الذين قرّوا من إيطاليا ثم القوط من بعدهم (...). ولعل في الدليل الآتي كفاية. ذلك أن بلد البربر كلها سواء منها مدن الساحل أم مدن الداخل، أعني المدن المشيدة قديمًا، لا تحتوي على أي كتابة في الأضرحة أو في جدران أي بناء إلا وهي

(8) المرجع نفسه، ج 2، ص 652.

(9) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ج 1، ص 69-70.

بالحروف اللاتينية بلا استثناء. ولا أظن أن الأفارقة استعملوا هذه الحروف واتخذوها لكتابة لغتهم الخاصة، إذ لا شك أن الرومان لما انتزعوا هذه الأماكن من أيدي أعدائهم مَحوا، بحسب عادة المتصرين، جميع النقوش الحاملة لآثار المغلوبين بخطهم الأصلي قصد إذلالهم وجعلوا عوضها كتابتهم الرومانية". وقد علّق مترجما كتاب الوزان إلى العربية على عبارته التي قال فيها "ويذهب فريق آخر من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة لغة مكتوبة"، بالقول: "لعله يشير إلى الكتابة الليبية-البربرية التي استمرت إلى وقتنا هذا عند الطوارق في شكلها الحديث، أو تكون الإشارة إلى الفينيقية التي كانت منتشرة حول قرطاج وانتشرت في سائر جهات شمال إفريقيا حتى بعد اضمحلال تلك المدينة". وأضيف أنا: إن كلمة تيفيناغ التي أصبحت اليوم تطلق على الكتابة الأمازيغية، ما هي إلا تحريف لكلمة (تيفيناغ) أي الفينيقية. والذين قارنوا بينها وبين الكتابة الحميرية القديمة (خط المسند) أثبتوا وجوه الشبه الكبيرة بينهما. ولكن كثيرًا من الناس، يصرون إصرارًا مبنياً على عوامل سياسية وأيدولوجية، على رفض كل صلة يمكن أن تجمع الأمازيغ بالعرب.

أما عن فترة دخول الإسلام للمنطقة، فإنه من الثابت أيضًا أن أول حملة أرسلت لفتحها من جهة الشرق (برقة وطرابلس)، حدثت في وقت مبكر من تاريخ الدولة الإسلامية، أي في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في عام 21 هـ. ثم توالى الحملات بعد ذلك، واستمر معها التوسّع الإسلامي نحو الغرب شيئًا فشيئًا. ولم يصل هذا التوسّع إلى المغرب الأقصى إلا مع الولاية الثانية لعقبة بن نافع (ابتداء من عام 62 هـ)، فهو الذي استطاع أن يصل بجيشه إلى طنجة ووليلي، وينزل جنوبًا إلى أن بلغ السوس الأقصى وغمر قوائم فرسه في ماء المحيط. ثم جاء بعده ولاة آخرون تابَعوا ترسيخ الوجود الإسلامي بالمغرب الأقصى مثل حسان بن النعمان، وموسى ابن نصير الذي أعد جيشًا مكوّنًا من اثني عشر ألفًا من المغاربة والعرب

القادمين من المشرق، وفتح به الأندلس (92هـ) التي أصبحت منذ ذلك التاريخ مرتبطةً بالمغرب تاريخياً وسياسياً وثقافياً وعلمياً، وإدارياً أيضاً في كثير من الأحيان. فقد أصبحت الأندلس بعد فتحها تابعة لولاية إفريقية في القيروان، وحين تحوّلت إلى إمارة أموية صارت هذه الإمارة تفرّض سلطتها ولو اسمياً على المغرب أو على أجزاء منه، بين الحين والآخر، لا سيما بعد انهيار الدولة الإدريسية. وفي العهد المرابطي والعهد الموحد والعهد المريني عادت الأندلس لتخضع للحكم المغربي.

ورغم أن الإسلام كان، عند نهاية القرن الأول الهجري، قد استقرّ أمره في مناطق شاسعة من المغرب الأقصى الذي أصبح تابعاً في حكمه للدولة الأموية في المشرق إلى حين سقوطها، إلا أن هناك أسباباً كثيرة، أغلبها سياسي راجعٌ لسوء تدبير الولاة والحكام وانتشار بعض المذاهب الآتية من المشرق ذات الطابع الديني والطابع السياسي معاً، كالمذهب الخارجي والمذهب الشيعي، جعلت المنطقة تعيش فترة طويلة من الفتن والاضطرابات، ما دفع الدولة المركزية في المشرق إلى إرسال حملات عسكرية تأديبية على فترات، فكانت أعدادها تُقدَّر في مجموعها بعشرات الآلاف. لذلك يمكن أن نعتبر هذا العدد الكبير من الجيوش الآتية من المشرق للفتح أو للتأديب وفرض الأمن والاستقرار، عاملاً آخر من عوامل دخول العربية. ورغم أن هذه الجيوش لم تكن تستقر كلها بالمنطقة في العادة، وإنما تعود في أكثريتها إلى بلادها، إلا أن هذا لا يمنع من القول إن فئة ولو قليلة من هذه الجيوش قد استقرت في نواح مختلفة من الأرض المفتوحة، وكوّنت أسراً واندمجت في حياة العالم الجديد، لا سيما أن وجود حاميات عسكرية عربية، ولو قليلة العدد في كل منطقة تُفتح، كان أمراً ضرورياً. بل لقد ذهب بعض الباحثين إلى القول إن وصول هذه القوات العربية بهذا العدد الكبير هو الذي عمل على استعراب مدُن بأسرها في وقت مبكر كتلمسان وسبتة

وطنجة وأصيلا وجزء مهم من المنطقة الشمالية للمغرب، علاوة على المدن التي سبقت إلى التعرّب مثل برقة وطرابلس والقيروان وتونس وغيرها. وذلك بحكم أن هذه المدن كانت واقعةً في الطريق الذي تسلكه الجيوش الفاتحة باستمرار، وإن كان العلامة عبد الله كنون يذكر سبباً آخر لتعريب منطقة الشمال المغربي، إذ يعزو ذلك أساساً إلى استقرار الأدارسة في دولتهم الثانية في المنطقة بعد إخراجهم من فاس وانتشار سُلّاتهم هناك، إضافة إلى عوامل أخرى. ومهما يكن من أمر، فإن استقرار فئة لا بأس بها من الجُند الفاتحين كان أمراً واقعاً تحدّث عنه البكري في مسالكة وغيره، وقال ابن خلدون في تاريخه (6/ 144) إن موسى بن نصير حين ولّى على طنجة طارق بن زياد "أنزل معه سبعةً وعشرين ألفاً من العرب، وأمرهم أن يعلّموا البربر القرآن والفقه". واستقرار الأقلية العربية المهاجرة إلى الشمال الإفريقي، بسبب الجُندية والخدمة العسكرية أو غيرها، كالتجارة والتدريس والتعليم ونشر الدين والعمل الإداري في دواوين الولاية والعمال، نتج منه نشوء طبقة متميّزة من المجتمع تُعرّف بـ "المولّدين"، يتنازعها الانتماء إلى ثقافة الآباء ولغتهم، والانتماء إلى ثقافة الأمهات ولغاتهم⁽¹⁰⁾.

(10) حين تحدث البكري في المسالك على سبيل المثال عن مدينة بسكرة في الجزائر الحالية قال: "سكّانها المولّدون، وحولها من قبائل البربر سدراتة وبنو مغراوة أهل بيت بني خزر، وبنو يزمري"، يُنظر: المرجع نفسه، ج 2، ص 713. ولم تكن هذه الفئة من المجتمع على انسجام دائم مع طبقتي العرب أو البربر. فقد كانت تنشأ بينهما منازعات أدت إلى حروب ومنازعات، وإلى التباعد وانعزال بعضها عن بعض. قال البكري متحدثاً عن مدينة تَهوذا في الإقليم التونسي: "وإذ كانت الحربُ بين العرب والمولّدين استمدّ العرب بعرب مدينة تَهوذا وسطيف، واستمدّ المولّدون بأهل بسكرة وما والاها" (ج 2، ص 712). وحين تحدث عن بنطوس في الجزائر قال: "مدن بنطوس، وهي ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض (...). إحداها يسكنها قومٌ من الفرس يعرفون ببني جُريج (...). والثانية يسكنها المولّدون، والثالثة يسكنها البربر (...). وبعجوف بنطوس طولقة، وهي ثلاث مدن (...). إحداها يسكنها المولّدون، والثانية يسكنها اليمن، والثالثة يسكنها قيس" (ج 2، ص 740).

وبغض النظر عن دور هذين العنصرين السابقين اللذين ذكرناهما في دخول العربية إلى المغرب وانتشارها، فإن هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبرى، نذكر منها:

- بناء المدن والحواضر التي كانت تجذب إليها الأهالي للاستقرار بها. وفي المدن، تكثر الأسواق وتروج التجارة وتنشط الحرف والصنائع وتُبنى المساجد والمدارس وينتشر التعليم ويكثر الطلب على الشغل والعمل في مختلف الصنائع والحرف، ويختلط الأهالي بالعرب الحاكمين والمهاجرين من الشرق والأندلس، وتُستعمل العربية في التخاطب اليومي بعد أن رُسمت وأصبحت لغة الدواوين والتعليم والقضاء والإدارة وغير ذلك في جميع البلاد الإسلامية. فقد كان لبناء القيروان في البداية، ثم تونس وتلمسان وفاس وغيرها، أثرٌ كبير في تثبيت وجود الإسلام والعربية ونشرهما⁽¹¹⁾. ويتفق المؤرخون على أن نشر العربية في المدن والتجمّعات السكانية الحضريّة كان سابقاً لنشرها في البوادي والمناطق الريفية، إذ لم يحصل ذلك بشكل واسع وفعال إلا بعد دخول عرب بني هلال وغيرهم كما سنذكر.

- بناء المساجد في المراكز الكبرى أوّل الأمر ثم في مختلف المجمّعات السكّنية الأخرى. والمسجد في القديم كانت له وظائف كثيرة منها وظيفة التعليم وتحفيظ القرآن، ووظيفة الوعظ والتثقيف ونشر اللغة. وقد عايّنا وعشنا بأنفسنا في مرحلة طفولتنا هذا الجانب التثقيفي الشعبي

(11) يذكر ابن عذاري أن عقبة بن نافع قال لأصحابه حين فتح تونس: "إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا به مدينة تكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين". يُنظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق بشار معروف ومحمود بشار عواد (تونس: دار الغرب الإسلامي، 2013)، ج 1، ص 40.